أحلام اليقـــــــظة

للاستاذ حامد عبدالقادر

أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

يقسم علماء النفس الخيال تقسيما مبدئياً إلى : مقيـد ، ومطلق ، ويريدون بالمقيـد : ذلك الذى يكون لغرض خاص ، ويتضمن التفكير فى الوسائل التى توصل إلى ذلك الغرض ، وليس هنا موضع البحث فى هذا النوع من أنواع الخيال .

أما المطلق : فهو ذلك الذى يكون حراً مطلق السراح ، يسير حيث يشـاء ، وكيف يشاء بدون غرض خاص ، ولذا يسميه البعض « تلاعب الخيال » ، لأن الخيـال حينئذ يكون فى لعب ومرح ، ليس مقيداً بقيود الحقيقة ، ولا مرتبطاً بقوانين الفكر الصحيح .

وإذا أوضح مثال لذلك مايجرى بخاطرك ، وأنت بالس جلسة راحة ، على فراش وثير بجانب موقد النار ، فى يوم من أيام الشتاء ، فان خيالك يلعب ويمرح ، ويذهب بك إلى الأمس والغد ؛ فتارة تتخيل أمامك مستقبلا براقا ، مملوءاً بالأمانى الحلوة ، والآمال العذبة السـارة ، وطوراً ترى شبح المستقبل مخيفاً مزعجاً ، وجوه مظلماً مكفهراً ، محفوفا بالمخاوف ، فاذا كنت راضيا متفائلا رأيت كل شيء حسناً مرضياً ، وإن كنت ساخطاً متشائماً ، رأيت ما لابد ونحيات مايؤلم من الحوادث المستقبلة ، وفتارت الى الجانب المظلم من جوانب الحياة .

ويسمى العلماء تلك الأفكار التى تجول بخاطرك فى مثل هذه الأوقات « أحلام اليقظة » التى كثيراً ماتمر بذهن المرء حينما يستسلم لخياله ويصبح كالنائم وهو مستيقظ ، أو كالغافل وهو منتبه ؛ فلا هو بالنائم ، ولا بالمستيقظ ؛ ولكنه فى حالة خمود وجمود عقلى ، أقرب ما تكون الى النوم .

وإنما سميت هذه الأفكار (أحلاماً) لأنها مثل أحلام النوم ، غير مقيدة بالحقيقة ؛ فالانسان فيها (يبنى قصوراً فى الهواء) — كما يقولون — ويسبح فى عالم بعيد عن عالم الحقيقة ، ويرى روايات تمثل أمامه ، وتنقضى فصولها سراعاً ، ويكون هو فى الغالب (بطلها) ؛ فهو يفكر فى مستقبله ؛ ويرسم الخطط ، ويفكر فى الوسـائل المؤدية الى النجاح ؛ ولكن هذا كله (تمثيل) لا أثر فيه للفكر الجدى ، وسرعان ماتذهب الرياح بتلك القصور ، وتقضى على

أشباح الأوهام ، تتذرها قاعاً صفصفا ، فيفيق المرء من غفوته ، وقد انحدر من عالم الخيال العذب المرن الى عالم الحقيقة المر الجاف .

ولم يا ترى تقوم هذه الأفكار بالانسان ؟ هل من الممكن تعليلها تعليلا نفسياً صحيحاً ؟ أم هي من الأسرار المغلقة ، التي لم يصل العلماء بعد الى كشفها وفهمها ؟ أم هي من الأوهام العابثة التي لا طائل تحتها ولا قيمة لها ؟

كلا ! إن لأحلام اليقظة دائماً ومغزى : فالدافع يكون في الغالب عدم الرضا بحالة الانسان الراهنة . والمغزى أو الغاية ، هي إرضاء رغبة من الرغبات ، أو ميل من الميول المقهورة المغلوبة على أمرها ، كالغريزة الجنسية : وحب الاطلاع ، والأمل ، وحب الظهور ، والعجب ، وقد يكون الغرض منها إخلاء السبيل أمام أحد الوجدانات ، كالخوف ، والذعر ، والحيرة ، والمقت ، وتوبيخ الضمير ، والغضب ، وحب الانتقام .

وليس هناك من مثال يوضح لنا ذلك مثل حكاية بائع الزيت ، التي قصها عليك الآن من قبيل التفكه :

يقال : إن رجلا كان عنده إناء مملوء زيتا ، فر بخاطره أن يبيع ذلك الزيت ، فقال في نفسه : إني اذا بعت هذا الزيت أستطيع أن أشتري بثمنه شاة تلد خرافاً كثيرة ، فأبيعها كلها ، وأشتري بقرة تلد لي عجولا كثيرة ، فأبيعها ثم أتزوج ، فأرزق ولداً ، فأرسله الى المدرسة ، فاذا كبر طالبته بالطاعة ، فأن خالفني ضربته بعصاي هذه هكذا ... ثم رفع عصاه ليضرب الولد الموهوم ، فضرب إناء الزيت بدلا منه فانكسر ، فخسر الرجل الزيت والولد معا .

فالرجل لم يكن متزوجا ، ولم يكن راضياً بالعيش أعزب ، فر بخاطره هذا الخيال ، فتحققت رغبته في الزواج ، في عالم الاحلام .

ومن هذا المثل ترى أثر الخيال في أعصاب الحركة والعضلات ، فكأن الرجل قد علم تماماً أنه رزق ولداً وأنه عصاه ، فهم ليعاقبه على عصيانه .

وقريب من هذا المثل ما يحكى من أن فتاة كانت ذاهبة الى السوق ، وعلى رأسها إناء مملوء لبناً ، فقالت في نفسها : إني سأبيع هذا اللبن وأشتري بثمنه دجاجة ، وستبيض لي هذه الدجاجة بيضاً كثيراً أبيعه بما يكفي لشراء ملابس لي ، فأشتري هذه الملابس وقبعة جميلة ، ثم أذهب الى صالة الرقص ، فيتهافت على الفتيان ليرقصوا معي ، فحينئذ أضربهم برأسي ، ثم ضربت برأسها في الهواء فوقع الاناء بما فيه .

فأحلام اليقظة حينئذ وسيلة خيالية لارضاء رغبات كامنة في النفس ، بدون تكلف المشقات التي تترتب على إرضائها إرضاء حقيقياً .

وهى فى الوقت نفسه مظهر من مظاهر غريزة حب الظهور والتسلط ، لأن بطل حلم اليقظة يكون الحالم نفسه أو أقرب الناس إليه ، كالولد ، أو الأخ ، أو أعز الاصدقاء ، والغالب أن هذا البطل يفوز وينتصر ، ويحصل على رغبته ، فقلما يتخيل الانسان نفسه مهزوماً خاضعاً ، على أن ذلك قد يحصل كما إذا أهانك صديق أمام أصدقاء آخرين إهانة بسيطة ، فلم تر وجها لرد الاهانة لبساطتها ، ولكنك تحفظها فى نفسك ، وتكبرها وتعظمها ، فتتصور أن صديقك أهانك إهانة عظمى ، ولكنك سرعان ماتحسن الظن بالموقف ، فتخفف آلامك ، وتتصور أن إخوانك ـ ولاشك قد لاحظوا على المعتدى تعديه ، وأنهم لابد لائمونه على ذلك ، وبهذا تعظم منزلتك أمام نفسك ، إذ أنك قد صرت عظيما فى نظرهم ، لدرجة أنهم أخذوا على صديقك هذا التعدى ، و نهم لابد معاتبوه على تعديه .

فالحالم فى الغالب يتصور نفسه منصوراً ، وإذا تخيل أنه مقهور مغلوب على أمره ، فانه يعتقد تماماً أنه على الحق ، وأن المتعدى عليه ظالم فى غير محله .

وليس من الممكن أن نقدر بالضبط مدى ماتصل إليه أحلام اليقظة ، فى الأشخاص العاديين ، لأننا لا نستطيع تحديد الفرق بين أحلام اليقظة وغيرها من العمليات الخيالية المطلقة ، ولأن كثيراً من الناس يحلمون فى يقظتهم بأكثر مما يظنون ، ولكنهم ينسون أحلامهم النهارية ، كما ينسون أحلام النوم .

ومع ذلك نقول : إن أحلام اليقظة تبلغ النهاية الصغرى فى أهل النشاط والعمل المادى والسعادة الدنيوية ، والنهاية الكبرى فى أهل الفكر والنشاط الباطنى ، وإنها فى الأطفال أكثر منها فى البالغين ، الذين يستلزم نموهم الجسمى والعقلى ، وعنائدهم وحياتهم العملية أن يعكفوا على التفكير فى الأعمال المنتجة المثمرة ، ومواجهة الحقائق ـ كما هى ـ بدون التجاء إلى الخيال إلا نادرا .

ومن أحلام اليقظة مايتعلق بالغاية العظمى أو الأمل أو مطمح نظر الانسان فى الحياة ، (Ideal) ويسمى خيال الآمال أو الخيال (الأيدياى) ، والفرق بينه وبين غيره من أحلام اليقظة أن أفكار المرء أثناء الخيال الأيدياى تكون أشد ارتباطا بذهنه وباستعداده الخاص ، ولذا يمكن تحققها ، ولو آجلا ؛ فالطبيب العادى الذى يتخيل نفسه متمتعا بمنزلة عظمى فى عالم الطب ، كمنصب كبير الأطباء أو عميد كلية الطب ، يقال عنه إنه يسرح فى عالم الخيال الايدياى ، ما إذا تخيل أنه خطيب مصقع ، قادر على التأثير فى الجماهير ، بلسانه العذب ، ومنطقه الفصيح ، وبيانه الخلاب ، مع كونه طبيباً متخصصا لمهنة الطب ، قيل عنه إنه يسبح فى عالم أحلام اليقظة فقط .

فكل من أحلام اليقظة البحتة ، والخيال الأيدالى : نوع من التخيل المطلق ، إلا أن هذا

مرتبط بمهنة الشخص ، ومن السهل تحققه ، أما ذاك فبعيد عنها، ومن الصعب تحققه ، هذا وإن للخيال الإبدالى أثرا كبيراً فى سلوك الانسان ، فاذا كان صادرا عن عاطفة احترام النفس ، أو العاطفة الخلقية ، فانه يحمل الانسان على القيام بأعمال خلقية ، من شأنها تكميل النفس ، وإن كان صادراً عن عاطفة أخرى ، فانه يدعو الى أعمال مناسبة لتلك العاطفة .

ومن هنا ترى أنه ليس من الضرورى أن يؤدى الخيال الإبدالى الى أعمال يستحسنها المجتمع ، لأن أعمال الشخص الناشئة عن خياله الإبدالى ، تتوقف على منزلة ذلك الخيال ، أو على آماله فى الحياة ، وهذه تتوقف على استعداده الطبيعى ، وعلى ما فيه من ضعف يرغب فى تقويته ، وعلى البيئة التى نشأ فيها ، وعلى رأيه فى المثل الأعلى من الرجال .

فمن عنده استعداد طبيعى لنوع من الاعمال ، يتخيل نفسه نابغة فيه ، ومن عنده ضعف فى ناحية يتمنى لو كان قويا فيها ، والذى ينشأ فى بيئة علم يتمنى أن يكون عالما ، والذى يهوى السياسة والسياسيين يأمل أن يكون سياسيا ؛ ومن الناس من يعجب باللصوص وأعمالهم الباهرة ، ويتمنى لو كان بارعا مثلهم ، فمثل هذا يكون خياله الإبدالى مرتبطا باللصوص والتلصص وربما دعاه ذلك الى محاولة التلصص فتتحقق أحلامه .

ومن الواجب أن نعرف الفرق بين أحلام اليقظة وخيال الواقع أو المخبول . إذ أن الحالم لم يخرج عن كونه متخيلا لا يرى إلا بعينى عقله ، وكل أفكاره خيالية مكونة من صور ذهنية تمر بنفسه سراعا ، وهو لا يقوم بحركات ناشئة عن أحلام مطابقة لها ، إلا فى أحوال نادرة جداً كما تقدم .

أما الواقع فانه يرى خطأ أشياء تمر أو تتحرك ، فيظن الكرسى امرأة جالسة تهتز ، ويعتقد القميص المعلق مثلا رجلا ناشراً يديه ، ويظن جزع الشجرة رجلا واقفا أو قادما عليه ، وهذا بالطبع نوع من الأمراض العقلية ، التى تعترى الضعفاء والمرضى ، أو الخائفين المذعورين .

وإذا وصل بالمريض الحد الى أنه يتخيل أشياء لا وجود لها ، أو يجعل من الصغير كبيراً ، ومن الحقير عظيما ، ثم يعامل هذه الأشباح التى تتراءى له ، معاملة من يعتقد أنها حقائق ، فانه يصل الى مرتبة (الخبل) الذى قد يؤدى الى الجنون المطبق ، كما اذا ذهب الى المرأة الموهومة وحاول التسليم عليها ، أو سار نحو الرجل الناشر يديه ، وأخذ يعانقه ، أو الى المقبل عليه ومد يده نحوه .

وسبب الخطأ فى الحالتين اضطراب الأعصاب ، وتهيج المراكز العصبية ، وعدم القدرة على ضبطها ؛ وبالتحليل النفسى ، وجد أن كثيراً من هذه الأمراض العقلية يرجع الى مخاوف قديمة ، ورغبات مكبوتة ، أى أنها من آثار العقل الباطن .

هذا ما عن لى ذكره عن أحلام اليقظة ، والتفرقة بينها وبين ما يشبهها من أنواع الخيال المطلق ، وسأتكلم عن أحلام النوم ، وآراء النفسيين فيها ، وبيان مشابهتها لأحلام اليقظة ، فى العدد الآتى إن شاء الله تعالى .

حامد عبد القادر